

سقوط المنجل..!

في ٢٧/١٠/١٩١٧م قامت الثورة على القيصرية الروسية التي كانت تمثل الإقطاع والاستبداد، وقد عبر عن هذا الاستبداد ليوتولستوي في روايته الشهيرة أهوال الاستبداد كما عبر عنه آخرون في روايات أخرى تجد منها رواية الدكتور جيفاكو التي نال عليها كاتبها جائزة نوبل، ولكنه منع منها وصودرت الرواية لولا أن المؤلف قد اتفق مع ناشر إيطالي يترجمها إلى الإيطالية وينشرها في العالم الغربي.

ومنذ ذلك التاريخ / أي منذ أربع وسبعين سنة، والعالم يعيش الشعارات تلو الشعارات التي دأبت العواطف، في هذا الوقت ثبت أن رافعي الشعارات لم يكونوا يعيشونها بدءًا بـلينين منظر الشيوعية الروسية وستالين الذي عاد إلى سيرة الاستبداد، ولكن هذه المرة باسم الشعوب، ثم مرورًا بالزعماء الروس الإقطاعيين مثل بريجنيف ومن تبعه من القادة السريعين في التحول عن كرسي القيادة.

ثم جاء ميخائيل جورباتشوف وقلب ظهر المجن للشيوعية والشيوعيين في نظيره الجديد الذي ضمنه كتابه «البروستريكا» قوض فيه الشيوعية إلى درجة عجيبة برزت في تدمير كل ما يذكر بالشيوعية كالتماثيل المنصوبة على الساحة في المدن والقرى السوفيتية، ويأتي هذا التدمير باحتفال شعبي يوحى للمتابع من بعد أن هذه الأمة قد عاشت فترة من خداع الشعارات اقتنعت فيها بأن العيش مع البديل / أي بديل أرحم من العيش مع الشعارات.

فتفكك الاتحاد السوفيتي واستقلت جمهورياته، وتسارعت إلى الأمم المتحدة تطلب العضوية المستقلة، وجرت انتخابات وعين رؤساء وحكومات

واختيرت أعلام، وستظهر العملة وكل مقومات الدولة المستقلة، وجاء هذا كله تقريباً وبخطوات عملية في سنة واحدة فقط ١٩٩١ م، وفي هذه السنة فقط تهدم البناء الذي استمر العمل عليه أربعة وسبعين عاماً في السلطة وأكثر منها في محاولات الوصول إلى السلطة.

وفي رأس السنة الميلادية الجديدة ١٩٩٢ م سينزل العلم الأحمر الذي يحمل المنجل والمطرقة إشارة إلى المحلية والفلاحة والعمل والكسح وغيرها من مصطلحات يكثر تردها في المعسكر الشرقي الذي كان. ومع زوال العلم الأحمر يتخلص شعب من الحمرة إلى الأبد، ولا يستغرب متابع من بعد أن يكون للناس هناك موقف من اللون الأحمر، إذ إنهم سيستمرون عائشين تحت تأثير الشعارات حتى مع زوال زمن الشعارات في بلد الشعارات.

ومع أنهم حاولوا طوال السنين الماضية نزع سلطان الدين من النفوس في ثورة ضد استخدام الدين في تلبية المصالح الشخصية لأصحاب الكهنوت ممن يقربونه، إلا أنهم لم يستطيعوا التخلص من فكرة العبودية التي جاءت بها الأديان كلها. ففي الوقت الذي منعوا فيه الانحناء لله تعالى نجدهم قد فرضوه لتماثيل التي نصبوها في الساحات العامة. ويقال إنه يفرض على المارين من رجال ونساء على هذه التماثيل أن ينحنوا لها ويخلع الرجال، قبعاتهم رمزاً للاحترام والتقديس، ومن الطريف أن أجمل ما في القرية هذا التمثال، إذ يعتمد الحزب الشيوعي إلى تسخير من يقوم على سدانة التمثال؛ وتنظيفه وتلميعه وصيانته من فضلات الطيور! ويكتب السادن تقارير عن الأشخاص الذين يمرون من تحته ولا ينحنون. هذا التمثال المعبر عن قائد الثورة لينين أصبح اليوم نهباً للصهر إذا كان من النحاس للإفادة من مادته في صنع أشياء تنفع البشر، أما إذا كان التمثال من الطين أو الفخار أو الجبس فقد سوي بالأرض في مشاهد درامية عجيبة.

التلاميذ الصغار...

وقد خلف النظام الشيوعي تلاميذ صغارًا له في الشرق والغرب، هؤلاء التلاميذ قلقون الآن على مصيرهم، والخوف على التلاميذ الصغار أن يتحولوا طعمًا للوحوش الكاسرة أو للنار الدنيوية يرمون بها. وهذا ليس بعيدًا من التصور، فقد زال عنهم المعين، وألغيت المساعدات وسحبت عنهم الجيوش والعساكر، وتخلت عنهم مخابرات الكي جي بي التي كانت تحميهم من شعوبهم، فلم تقدر الآن على الاستمرار في حراستهم، فيلتفتون يمنة ويسرة وهم يشعرون أن الطعنة تصلهم من أقرب المقربين إليهم.

لقد تخلى الأستاذ الكبير عن تلاميذه الصغار قبل أن يمنحهم الإجازة في حمل العلم، وقبل أن يحتفلوا بالتخرج، وقبل أن يتسلموا الشهادات وجوائز التفوق. وأول المتفوقين الرجل العنيد فيدل كاسترو الذي يبدو أنه يحزم حقائبه ويجلس في بيت على الشاطئ ومعه رزمة من سجائر الهافانا الفاخرة! ينهي معها بقية حياته غير مأسوف عليه، ثم يتوالى التلاميذ، منهم من هم على السلطة، ومنهم من هم يحلمون بها، ولكنه حلم متبدد، ويذكر من هؤلاء نجيب الله في أفغانستان وهو لا يقل عنادًا عن رفيقه كاسترو، ولكنه ليس أعرق منه في الشيوعية، إلا أنه قد انتهى من حزم حقائبه، ولا أعلم فقد يكون قد فر الآن عند نشر هذه الحروف، فالأحداث تتلاحق في المعسكر الشرقي إلى درجة أعييت وكالات الأنباء والمراسلين، ومع هذا فنجيب الله يحاول الآن أن يستغل العاطفة الدينية لدى الأفغان ليدعي أنه مسلم صادق يصلي ويصوم ويطبق الإسلام، ولكنه يبيع هذا على من عرفوه فلن يقبلوا منه إلا أن يروه ناكس الرأس منكوس السلطان.

وغير هذين من التلاميذ الذين يستغرب المرء بحق كيف تحولوا إلى تلاميذ، وما الذي دفعهم إلى هذا التحول السطحي بحيث يكون هناك اندفاع

قوي نحو الشيوعية بحيث يكونون شيوعيين أكثر من الشيوعيين أنفسهم . وهذا حال بعض التلاميذ حيث يسيئون إلى أساتذتهم بتشويه علمهم الذي تلقوه على أيديهم فيعينون على تقويض هذا العلم ونزعه من جذوره إن كانت له جذور.

ولا أظن أن اللوم كله يقع على هؤلاء التلاميذ الصغار، وإن كانوا يتحملون عبئاً كبيراً من اللوم، ولكنهم فقدوا الثقة في البديل الذي كان أصلاً يتماشى مع الفطرة ويراعي الإنسان، وهذا واضح في التلاعب بالدين في الغرب بخاصة عندما سيطر عليه فئة من الناس اتخذوه وسيلة للعيش الرغيد فألغوا منه ما يتعارض مع منافعهم الشخصية، وبدلوا فيه وغيروا حتى أصبح مسخاً غير مقبول لفطرة البشر، رغم المحاولات المستمرة في مجالات الوعظ واتخاذ الوسائل الخادعة التي لا تتعدى السباحة في محيط من المثاليات .

ولم يحصل هذا تماماً في المجتمع المسلم، فالدين الإسلامي غير قابل للتبديل والتحريف والتغيير، ولكن الناس ابتعدوا عنه - ليس جميعاً - واكتفوا منه بالعلاقة المباشرة عند من أصرروا عليه في بعض المجتمعات حتى أصبح الدين - في بعض المجتمعات - مجرد طقوس، تحكم شيئاً من العلاقة بين العبد وربّه ولا تحكم العلاقة كلها . ومع غياب الوعي والوضوح والصحة في الدين، ومع دخول أفكار أخرى على المجتمعات، لجأ بعض المتعاطفين مع هذه الأفكار إلى تبنيها وبخاصة أنها أتاحت لهم الصعود إلى الكراسي والبقاء فيها لمدة . والملحوظ أن الانقلاب على هؤلاء في الغالب إنما يأتي من أتباعهم الذين لا يقدمون بديلاً لهذه الأفكار، وإنما يلحظون خللاً في تطبيقها .

ومن هنا تكمن المسؤولية على العالمين من المسلمين في تقديمهم للإسلام تقديمًا واضحًا خاليًا من الشوائب التي علقّت به في بعض المجتمعات، فطغت على نصابته وصفائه وقدمته للناس بصورة درويشية هي

أقرب إلى الهلوسة منها إلى قابلية التطبيق 'الفعلي' على جميع شؤون الحياة .

وإذا ما وضع هذا في الأذهان وجدت التائبين يكثرون والعائدين يزدادون وبخاصة في الوقت الذي يتوالى فيه سقوط الشعارات والتنظيرات المثالية البعيدة عن التطبيق على أرض الواقع .

ومع سقوط المنجل تتضاعف مسؤولية المسلمين تجاه إخوانهم في الاتحاد السوفيتي - سابقًا - فلم يعد هناك عذر، وفتحت الأبواب على مصراعيها، وتكررت الدعوات للإسهام في إيضاح البديل الطيب، وسيأتي من الجمهوريات الإسلامية قيادات إلى البلاد الإسلامية بما فيها المملكة العربية السعودية متلمسين الدعم المعنوي أولاً ثم العلمي ثانياً من خلال إرسال الدعاة المخلصين الواعين والعالمين الفاقهين، فالتغيير يحتاج إلى وقت طويل، ولكنه لا يحتمل التأخير بحال من الأحوال، ويبدو أن هناك توجهًا نحو البدء في التغيير، هذا التوجه عندما يدعم الدعم المناسب سيؤتي ثماره ما خلصت النيات وصدقت العزائم .

ولعل سقوط المنجل يوحي بأشياء لأولئك الذين يصرون على التمسك بما يتنافى مع فطرة البشر، فينقادون طائعين إلى ما يتماشى مع فطرة البشر عندما يتمكن أولئك الأمناء على تقديم هذه الأفكار الفطرية تقديمًا هادئًا حكيمًا متأنياً يسعى إلى الوصول بالمجتمعات كلها إلى الأفضل دون التثبث بوضع زمن محدد للوصول إلى الأفضل، وفق الله العالمين على تصحيح المسار في المجتمعات الإسلامية سعيًا وراء التثبيت وكان الله في عون الجميع .